المسائل العقديّة في قصّة نوح عليه السّلام: عرضًا ودراسة

إبراهيم "محمد خالد" برقان*

ملخص

تهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على المسائل العقديّة في قصّة نوح عليه السّلام الواردة في القرآن الكريم، من خلال بيان المسائل المتعلّقة بالتّوحيد، ودلائلها في قصّة نوح عليه السّلام، وكذلك المسائل المتعلّقة بالنّبوّات، ودلائل إثبات نبوّة نوح عليه السّلام، وردّ الشّبهات التي أنكرها قوم نوح على نبوّته عليه السّلام، والإجابة عن بعض الإشكالات العقديّة التي وردت في قصّة نوح عليه السّلام، كما تتناول هذه الدّراسة التّعريف به عليه السّلام، ودعوته.

وتمّ التوصّل من خلال هذه الدّراسة إلى جملة من النتائج أهمّها: أنّ نوحًا عليه السّلام هو أول رسول إلى الخلق بعد ظهور الانحراف الإنسانيّ في عبادة الله تعالى، وهذا لا ينفي كون آدم عليه السلام نبيًّا ورسولاً من حيث الإجمال، وكذلك ابتدأ نوح عليه السّلام دعوة قومه بتوحيد الألوهيّة المتمثّل في إفراد الله تعالى بالعبادة والطّاعة، ثمّ بعد ذلك لفت عقولهم إلى التدبّر والتأمّل في الآيات الكونيّة الدّالة على وجود الله تعالى، وقدرته، وعظمته، بالإضافة إلى أنّ الله تعالى أثبت نبوّة نوح عليه السّلام في القرآن الكريم، وردّ شبهات منكري نبوّته من قومه.

الكلمات الدالة: العقيدة، التوحيد، نبوّة نوح عليه السّلام.

* قسم أصول الدين، كليّة الشّريعة، الجامعة الأردنية.

تاريخ تقديم البحث: 2015/11/2 م. تاريخ قبول البحث: 2017/2/1م .

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2020م.

Doctrinal Issue in The Story of Prophet Noah: Presentation and Study

Ibrahim"Mohammad Khalid" Burqan

Abstract

The present study investigates doctrinal issues in the story of Prophet Noah. The study includes matters of Prophethood, evidence of Noah's prophethood, refutation of Noah's people allegations and answering some doctrinal questions which appear in the story of prophet Noah and an introduction about Noah and his Da'wah,

The research reached the following results: Prophet Noah was the first prophet sent to the creation after the doctrinal deviation; this does not contradict with the fact that Adam was a prophet and messenger: moreover, Noah started his mission by calling to Oneness of Allah in obedience and worship, calling people to reflect upon universal signs that indicate Allah's existence, power and greatness. The study highlights the fact that Allah proved Noah's prophecy in the Qura'n and refuted the allegations of those who denied his prophecy.

Keywords: Faith, Monotheism, and Prophethood of Noah, peace be upon him

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطّيبين الطّاهرين، وصحبه الغرّ الميامين، ومن تبعهم بخير وإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فيعدّ الإيمان بالأنبياء والرّسل جميعهم من أركان الإيمان، فهم صفوة الخلق، وأكمل النّاس إيمانًا ودِينًا وخُلُقًا، فقال تعالى:" قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" سورة (Al'Imran, 84) .

وأيّدهم الله تعالى بالآيات الباهرات، والمعجزات السّاطعات، لتكون أدلّة دامغة على صدق نبوّتهم من جهة، ويقيم الحجّة على النّاس من جهة أخرى. قال سبحانه وتعالى:" وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً" سورة (AlIsra, 15) .

وأرسل الله تعالى أنبياءه ورسله عليهم السّلام إلى البشر؛ لدعوتهم إلى عبادة الله وحده، وتبليغ رسالاته إليهم، وتعريفهم بأوامره ونواهيه، وحثّهم على مكارم الأخلاق، وما فيه تحقيق سعادتهم في الدّنيا والآخرة، من استقرار معاشهم وصلاح أحوالهم في دنياهم، ودخولهم الجنان ونجاتهم من النّيران في أخراهم.

وتظهر مشكلة البحث من خلال محاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أولاً: هل النبيّ نوح عليه السّلام هو أول رسول، وهل آدم عليه السّلام من الأنبياء غير المرسلين؟

ثانيًا: ما دلائل التّوحيد في قصّة نوح عليه السّلام؟

ثالثًا: ما الشّبهات التي أنكر من خلالها قوم نوح نبوّته عليه السّلام؟

رابعًا: كيف ردّ نوح عليه السّلام على شبهات قوم نوح في الطّعن بنبوّته عليه السّلام؟

خامسًا: كيف صحّ أن يدعو نوح عليه السّلام على قومه؟

سادسًا: كيف جاز أن يطلب نوح عليه السّلام الشّفاعة لابنه؟

سابعًا: كيف جاز أن تكون امرأة النّبي نوح عليه السّلام على الكفر؟

وتكمن أسباب اختيار الموضوع في أنّ النبوّة تعدّ أصلاً من أصول الدّين، وأنّ القرآن الكريم قد اشتمل على قصص الأنبياء والرّسل عليه السّلام، ومن هذه القصص قصّة نبيّ الله نوح عليه السّلام التي وردت في العديد من السّور القرآنيّة بالتّفصيل، بالإضافة إلى ما تضمّنته قصّته عليه السّلام من مسائل عقديّة تمثّلت في الإيمان بالله، وعدم الإشراك به، وتوحيده، والإنذار من عذاب يوم القيامة، شأنه في ذلك شأن أنبياء الله ورسله عليهم السّلام في دعواتهم لأقوامهم.

وتبرز أهمية هذا الموضوع من خلال أنّ نوحًا عليه السّلام كان يعدّ الأب الثاني للبشريّة بعد حلول الطّوفان على الرّافضين لدعوته إلى توحيد الله تعالى من قومه، والمنكرين لنبوّته عليه السّلام، فقد ارتأيت في هذا الإطار بالذّات أن أخصّ بالبحث "المسائل العقديّة في قصّة نوح عليه السّلام: عرضًا ودراسة"، محاولاً بذل الجهد في تجلية المسائل العقديّة الواردة في قصّة نوح عليه السّلام.

وأمّا منهج البحث الذي استخدمته في هذا العمل، فقد اتبعت فيه المناهج الآتية:

أولاً: المنهج التّاريخيّ: للاعتماد عليه في بيان الجانب التّاريخيّ المتعلّق بقصّة نوح عليه السّلام.

ثانيًا: المنهج الوصفيّ: وذلك من خلال عرض مسائل العقيدة التي تناولتها قصّة نوح عليه السّلام.

ثالثًا: المنهج التّحليليّ النّقديّ: القائم على تحليل هذه المسائل العقديّة التي ردّ بها نوح عليه السّلام على المنكرين لها من قومه.

وأمّا بخصوص الدّراسات السّابقة، فإنّه لئن تناول الباحثون دراسة المسائل العقديّة الواردة في سور القرآن الكريم، كسورة الفاتحة، وسورة الأحقاف، وسورة الإخلاص، إلا أنّ المسائل العقديّة في قصّة نوح عليه السّلام، وحسب اطلاع الباحث، لم يجد من أفردها ببحث مستقل يتضمن عرضها وتفصيلها.

ولمحاولة الإحاطة بمختلف جوانب هذا الموضوع اقتضت منهجيتي أن أقسم بحثي إلى أربعة مباحث، وخاتمة على النّحو الآتي:

المبحث الأول: التّعريف بكلّ من نوح عليه السّلام، ودعوته:

المطلب الأول: التّعريف بنوح عليه السّلام.

المطلب الثاني: التّعريف بدعوته عليه السّلام.

المبحث الثاني: المسائل المتعلّقة بالتّوحيد:

المطلب الأول: تعريف التّوحيد لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: أنواعه.

المطلب الثالث: دلائله في قصّة نوح عليه السّلام.

المبحث الثالث: المسائل المتعلّقة بالنّبوّات:

المطلب الأول: تعريف النّبيّ والرّسول لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: نبوّة نوح عليه السّلام.

المطلب الثالث: ردّ اعتراض قوم نوح على نبوّته عليه السّلام.

المبحث الرّابع: الإشكالات العقديّة في قصّة نوح عليه السّلام:

المطلب الأول: دعاؤه عليه السّلام على قومه.

المطلب الثاني: طلبه عليه السّلام الشّفاعة لابنه.

المطلب الثالث: بقاء امرأة نوح عليه السّلام على الكفر.

الخاتمة.

المبحث الأول: التّعريف بكلّ من نوح عليه السّلام، ودعوته:

المطلب الأول: التّعريف بنوح عليه السّلام.

لئن أورد ابن كثير في تاريخه نسب نوح عليه السّلام إلى آدم عليه السّلام أبي البشر (Ibn Katheer, W.D, p. 101) إنّما أورده من باب التحلّي به لا الاستناد إليه، ولا الاحتجاج به، وهذا هو المنهج الذي اتّبعه في تدوين مصنّفه التّاريخيّ "البداية والنّهاية" (Ibn Katheer, W.D, p. 6)

وذهب ابن كثير إلى أنّ المدّة التي كانت تفصل بين آدم ونوح عليهما السّلام عشرة قرون (Ibn Katheer, W.D, p. 101)، وذلك استنادًا إلى رواية أبي أمامة رضي الله عنه، حيث قال: "إنّ رجلا قال: يا رسول الله، أنبيّ كان آدم؟ قال: نعم، مكلّم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون" (Ibn Hibban, 1993, p.69) .

ثمّ بيّن أنّ المراد بالقرن إمّا أن يكون مائة سنة، وإمّا أن يراد به الجيل من النّاس، فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من النّاس فبينهما ألف سنة لا محالة، وإن كان المراد بالقرن الجيل من النّاس كما في قوله تعالى: "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيراً" سورة (AlIsra, 17)، وقوله: "وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ" سورة (AlAn'am, 6)...، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون دهورًا طويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين.(Ibn Katheer, 774 A.H, p. 101)

وقد اختلفت الأقوال (Ibn Katheer, W.D, p. 101, see also, Al-Tabaree, 1407 A.H, p.112. Ibn al-Atheer, 1998, p.55) في بيان مقدار عُمُر نوح عليه السّلام يوم بُعث إلى قومه، ولا يمكننا اعتماد أحدها دون الآخر؛ وذلك لعدم ورود روايات صحيحة تؤيّدها.

وأمّا بخصوص كون نوح عليه السّلام هو أول الرّسل، فقد أشار ابن الأثير (ت630هـ) في "الكامل في التاريخ" إلى أنّ نوحًا عليه السّلام هو أول رسول بعثه الله تعالى إلى النّاس؛ ذلك أنّ" الكفر بالله حدث في القرن الذي بُعث فيه إليهم نوح، فأرسله الله، وهو أول نبيّ بُعث بالإنذار، والدّعاء إلى التّوحيد". (Ibn al-Atheer, 1998, p.20)

وأقر ابن كثير في "البداية والنّهاية" أنّ أول الرّسل هو نوح عليه السّلام، فقال: "فنوح عليه السّلام إنّما بعثه الله تعالى لمّا عُبدت الأصنام والطواغيت، وشرع النّاس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض، كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة". (Ibn Katheer; W.D, p.101)

واستدل على ذلك بحديث الشّفاعة العظمى للنبيّ محمّد صلى الله عليه وسلّم حيث روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال:" كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَعْوَةٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، وَقَالَ: أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ بِمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ؟ فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي،

وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، وَمَا بَلَغَنَا فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُون: يا نوح، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا ،أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، ائْتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونِي فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ". (Al-Bukharee, 1422 A.H, p.399)

ولئن ذهب كلّ من ابن الأثير وابن كثير إلى أنّ النبيّ نوح هو أول الرّسل، غير أنّ ذلك لا يعني أن آدم عليه السلام لم يكن نبيًّا ورسولاً، فمن حيث الاصطفاء قال تعالى:" إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ" سورة (Al'Imran, 33) .

ثمّ إذا عدنا إلى قوله تعالى: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً" [سورة البقرة، الآية:30] نجد أنّ من معاني الخليفة التي قال بها معظم المفسرين:"ساكنا وعامرا يسكنها ويعمرها خلقا"(Ibn Katheer, 1994, pp.91-92, see also, al-Tabaree, 2000, pp.447-449))، ومن ثمّ فإنّ العمارة بدأت من أولاد آدم عليه السّلام ونسلهم بعد ذلك.

وهكذا، فإنّ القول بأنّ نوحًا عليه السّلام هو أوّل الرّسل، إنّما هو باعتبار أنّ أوّل ظهور للانحراف العقديّ كان في قومه، وبالتالي هو أول الرّسل الذين بُعثوا لتصحيح عقائد النّاس بعد انحرافها، وهذا لا يتنافى مع كون آدم عليه السّلام هو أوّل الأنبياء والرّسل من حيث الإجمال.

وإذا نظرنا إلى المدّة بين آدم عليه السّلام ونوح عليه السّلام كما جاء في بعض الروايات التي تقدّمت في البحث، وهي:عشرة قرون على اختلاف في معنى القرن، واختلاف في المدة، إلا أنّها مدة طويلة تحتاج طبعا إلى الدعوة والتبليغ حتى لا يحيدوا عن طريق الله تعالى، وجاء في بعض هذه الروايات أنّ هذه القرون كلّ الناس كانوا فيها على الإسلام، ممّا يؤكد أنّ آدم عليه السّلام لم يكن نبيًّا فقط، وإنّما كان نبيًّا ورسولاً، فلا بدّ أن يكون مبلغًا لقومه بالدعوة إلى توحيد الله تعالى وطاعته

حتى تقوم الحجة عليهم. يقول الإمام الشَّافِعِي: "ثم ذكر سبحانه من خاصته صفوته، فقال جلّ وعزّ: "إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ " سورة (Al'Imran, 33)، فخصّ آدم ونوحًا، بإعادة ذكر اصطفائهما". (Al-Shafiʿee, 2006, p.468)

وهذا ما أشـــار إليه الرازي في معنى هذه الآية الكريمة أنّه على قولين، فقال "الأول: المعنى أنّ الله اصطفى دين آدم ودين نوح، فيكون الاصطفـــاء راجعًا إلى دينهم وشرعهم وملتهـــم...".(Al-Razee, 2000, p.19)

وأمّا بشأن قبره عليه السّلام، فلئن رجّح ابن كثير أنّ قبر نوح عليه السّلام بالمسجد الحرام، غير أنّه يمكننا القول بأنّ قبور الأنبياء والرّسل عليهم السّلام مجهولة أماكنها، لا يُعرف منها إلاّ قبر نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم في المدينة المنوّرة، وما أخبر عنه عليه الصّلاة والسّلام بشأن قبر موسى عليه السّلام في الحديث الشّريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلمّا جاءه صكّه، ففقأ عينه، فرجع إلى ربّه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: فردّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إليه، فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثمّ مه؟ قال: ثمّ الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فلو كنت ثمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر". (Muslim, W.D, 1842)

المطلب الثاني: التّعريف بدعوة نوح عليه السّلام:

اتخذ قوم نوح عليه السّلام أصنامًا من دون الله تعالى ظلّوا لها عاكفين، فابتعدوا عن الإيمان بالله تعالى، وأشركوا به. أخرج البخاريّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال:" صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وأمّا يغوث فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ؛ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ". (Al-Bukharee, W.D, p. 261)

ونقل ابن كثير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره من علماء التّفسير قولهم: "وكان أول ما عبدت الأصنام أنّ قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوّروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلمّا طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور، فلمّا تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسمّوها بأسماء أولئك الصالحين ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، فلمّا تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى، وله الحمد والمنّة، رسوله نوحًا، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" سورة (AlA'raf, 59) (Ibn Katheer, W.D, p.272).

وقد أرسل الله تعالى إليهم نوحًا عليه السّلام إلى قومه، ليعيدهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وخلع عبادة الأوثان، وينذرهم من عذاب أليم، وأنّه كلّما ألحّ في دعائهم ازدادوا نفورًا منه، وتجاهلاً له؛ فيضعون أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوه، ويغطّون وجوههم بثيابهم كي لا يروه، واستكبروا استكبارًا، ولم ييأس نوح فزاد من جهده في دعوتهم، فكان يدعوهم جهارًا بأعلى صوته، وبكلّ الطّرق، ثمّ يحاول أن يدعوهم ســـرًا لعلّ بعضهم يخشى الجهر بإيمانه. (Al-Hannamee, 2008, pp.52-53)

ووصف الله تعالى في القرآن الكريم دعوة نوح قومه، وإعراضهم عنها، فقال تعالى: "قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً {5} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً{6} وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً{7} ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً{8} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً" سورة (Nuh, 5-9).

ثمّ يذكر الله تعالى المدّة الزّمنيّة التي مكث فيها نوح عليه السّلام يدعو قومه، وهي تسعمائة وخمسين سنة، فقال تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً"(AlAnkabut, 14).

وظاهر الآية يفيد أنّ "هذه مدة رسالته إلى قومه، ولا غرض في معرفة عمره يوم بعثه الله إلى قومه، وفي ذلك اختلاف بين المفسرين، وفائدة ذكر هذه المدة للدلالة على شدّة مصابرته على أذى قومه، ودوامه على إبلاغ الدعوة". (Ibn ‘Ashour, 2000, p.146)

وهكذا، فقد بذل نوح عليه السّلام طوال هذه المدّة غاية جهده، وكلّ ما في وسعه، مستعينًا بكلّ السّبل والوسائل من أجل هداية قومه، فينذرهم أحيانًا، ويعدهم أحيانًا أخرى بالرّزق الواسع والرّخاء العميم من أموال وبنين، وجنّات وأنهار، إلا أنّهم ازدادوا تكذيبًا له، ونأيًا عنه، واستهزاء به وبمن آمن معه وتبعه.

وأصرّ قومه على عنادهم، واستكبارهم، وقد أخذتهم العزّة بالإثم، حين تحدوا نوحًا عليه السّلام بطلبهم العذاب، قال تعالى: "قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" سورة (Hud, 32) .

ولمّا أخبر الله تعالى نوحًا عليه السّلام أنّه لن يؤمن إلا مَن قد آمن دعا ربّه تعالى أن يهلكهم، ولا يغادر منهم أحدًا، قال تعالى على لسان نوح عليه السّلام: "وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً {26} إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً" سورة(Nuh, 26-27).

وأمره الله تعالى أن يصنع السّفينة؛ لأنّه سيغرق الكافرين من قومه بالطّوفان، وينجيه ومَن تبعه من المؤمنين، وجاء هذا الأمر الإلهيّ بعد أن أرسله الله تعالى إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد، وفراق الآلهة والأوثان، فلم يزدهم إلا فرارًا، وبُعدًا عن الله تعالى (Al-Tabaree, W.D, p.16) .

قال تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ{14} فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ" سورة (AlAnkabut, 14-15)؛ ذلك أنّهم قوم عميت أبصارهم، فعاندوا، واستهزؤوا، فحلّ العذاب بالمكذبين، وأهلكهم الله سبحانه بالطّوفان، بعد أن لم ينتفعوا بالحجّة والرهان، واختاروا الكفر على الإيمان (Al-Ameereyy, 2000, p.81) ، فكان ذلك سبب العذاب المباشر الذي حلّ بهم.

المبحث الثّاني: المسائل المتعلّقة بالتّوحيد:

المطلب الأول: تعريف التّوحيد لغة واصطلاحًا:

التّوحيد مأخوذ من المصدر الثلاثي "وحد"، قال ابن فارس: "الواو والحاء والدّال: أصل واحد يدلّ على الانفراد، من ذلك الوَحْدَة، وهو وَاحدُ قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله...، والواحد المنفرد. (Ibn Fares, 1979, p.90)

وأمّا تعريف التّوحيد في الاصطلاح، فهو "الاعتقاد بأنّ الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزليّة لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له" (Al-Shihristaneyy, 1404 AH, p.40)

وعرّفه السّفارينيّ بقوله: "إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالاً، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه، ولا تشبه صفاته الصفات، ولا تنفك عن الذات، ولا يدخل أفعاله الاشتراك، فهو الخالق دون من سواه". (Al-Safareeneyy, 1402, p.57)

ونلحظ من خلال تعريف السّفارينيّ أنّه أشار إلى استحقاق الله تعالى وحده للعبادة، وإفراده بها دون خلقه، وكذلك إفراده باستحقاق وحدانيّته في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله لا يشاركه أحد فيها.

المطلب الثّاني: أنواع التّوحيد:

وأمّا بخصوص أنواع التّوحيد فقد ذكر ابن أبي العزّ الحنفيّ أنّ التّوحيد يتضمّن ثلاثة أنواع: توحيد الرّبوبيّة، وتوحيد الألوهيّة، وتوحيد الأسماء والصّفات.(Ibn Abee al-Izz, 1391, p.77) وبيان معنى هذه الأنواع الثلاثة كالآتي: (Al-Safareeneyy, 1402, pp. 128-129)

1 – توحيد الرّبوبيّة: وهو الاعتقاد بأنّ الله تعالى هو الخالق والرّازق، والمحيي والمميت، والموجد والمعدم.

2 – توحيد الألوهيّة: وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، والتألّه له، والخضوع والذل، والحبّ والافتقار، والتوجّه إليه تعالى.

3 – توحيد الأسماء والصّفات: وهو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به نبيّه صلّى الله عليه وسلّم نفيًا وإثباتًا، فيُثبت له ما أثبته لنفسه، ويُنفى عنه ما نفاه عن نفسه من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير إلحاد في الأسماء ولا في الآيات، فإنّ الله تعالى ذمّ الذين يلحـــدون في أســـمائه وآياته (Ibn Taymiyyah, 1977, p.4).

كما أشار ابن أبي العزّ الحنفيّ إلى تقسيم آخر للتّوحيد الذي دعت إليه الرّسل عليهم السّلام، ويشتمل على نوعين هما:

1- توحيد في الإثبات والمعرفة (Ibn Abee al-Izz, W.D, p.89): ويسمّى "التّوحيد العلميّ الخبريّ الاعتقاديّ: وهو المتضمن إثبات صفات الكمال لله عزّ وجـــلّ وتنزيهه فيها عن التّـــشبيه والتمثيل، وتنزيهه عن صفات النّقص، وهو توحـــيد الرّبوبيّة والأســـماء والصّفات" (Al-Hakameyy, 1990, p.98).

2 – توحيد في الطّلب والقصد (Ibn Abee al-Izz, W.D, p.89): ويُطلق عليه أيضًا "التّوحيد الطّلبيّ القصديّ الإراديّ: وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكّل عليه والرّضا به ربًّا وإلهًا ووليًّا، وأن لا يجعل له عدلا في شيء من الأشياء وهو توحيد الإلهيّة" (Al-Hakameyy, 1990, p.98).

المطلب الثّالث: دلائل التّوحيد في قصّة نوح عليه السّلام:

وردت في قصّة نوح عليه السّلام آيات كريمة تدلّ على توحيد الرّبوبيّة، وتوحيد الألوهيّة، وهي على النّحو الآتي:

أوّلاً: توحيد الرّبوبيّة:

ذكرت في ما سبق أنّ المقصود بتوحيد الرّبوبيّة هو الإيمان بتفرّد الله تعالى بالخلق، والمُلك، والرّزق، والإحياء والإماتة، والتّدبير، والتصرّف.

وقد أشار نوح عليه السّلام إلى توحيد الرّبوبيّة من خلال حواره مع قومه، حين وجّه أنظارهم إلى مظاهر ربوبيّة الله تعالى وقدرته، وأنّه سبحانه بيده كلّ شيء، فقال تعالى حكاية عن نوح عليه السّلام في هذا النّطاق:" قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً{5} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً{6} وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً{7} ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً{8} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً{9} فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً{10} يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً{11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً{12} مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً{13} وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً{14} أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً{15} وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً{16} وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ

نَبَاتاً{17} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً{18} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً{19} لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً" سورة (Nuh, 5-20).

ويظهر لنا من خلال هذه الآيات الكريمة أنّ الله تعالى قد بدأ تارة بدلائل الأنفس، وبعدها بدلائل الآفاق؛ وذلك لأنّ نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، وتارة بدأ بدلائل الآفاق، ثمّ بدلائل الأنفس، إمّا لأنّ دلائل الآفاق أبهر وأعظم، أو لأنّ دلائل الأنفس حاضرة، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها، إذ إنّ دلائل الآفـــاق هي التي يُحتاج إلى التأمـــل فيها؛ لأنّ الشُـــبه فيها أكثر (Al-Razee, 2000, p.124).

فقد نبّههم نوح عليه السّلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه على خلقه بما أوسع عليهم من رزقه، فهو الذي يجب أن يُعبد، ويُوحّد، ولا يُشرك به أحد؛ لأنّه لا نظير له، ولا ندّ، ولا كفء، ولا صاحبة، ولا ولد؛ بل هو العليّ الكبير (Ibn Katheer, 1994, p.213).

ويمكننا إبراز مظاهر توحيد الرّبوبيّة الواردة في هذه الآيات الكريمة على النّحو الآتي:

1- إدرار الله تعالى السّماء بالمطر:

طلب نوح عليه السّلام من قومه العودة إلى التّوحيد، وترك الشّرك، وأنّهم إذا استجابوا لذلك، فإنّ الله تعالـــى سينزل عليهم غيثًا منهمرًا يسقي أرضهم، وينبت زرعهم. قال الطّبريّ: "يســـقيكم ربّكـم إن تبتم، ووحدتموه، وأخلصتم له العبادة الغيث، فيرسل به الســـماء عليكم مـــدرارًا متتابعًا" (Al-Tabaree, 2000, p.633).

2- الإمداد بالأموال والبنين:

تُعدّ الأموال والبنين من الأرزاق التي يهبها الله تعالى لعباده، ويمدّهم بها في الحياة الدّنيا. قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ" سورة (AdhDhariyat, 58) ، وقال تعالى: "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَـــاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُور" سورة (AshShura, 49) ، فقد خاطب نوح عليه السّلام قومه أنّكم إن عبدتم الله وحده، فإنّه سيعطيكم أموالاً وبنين، فيكثرها عندكم، ويزيد ما هو عندكم (Al-Tabaree, 2000, p.633).

3- إنبات الجنّات وجريان الأنهار:

وهي من مظاهر قدرة الله تعالى، فيكسو مناطق بالجنّات والزّروع والثّمار، ويصيب أماكن غيرها بالجدب، ويُجري أنهارًا في بلاد دون أخرى، ومشاهد ذلك واضح في الآفاق.

فأخبرهم نوح عليه السّلام أنّكم إذا أفردتم الله تعالى بالتوحيد والعبادة والطّاعة، فإنّه سيرزقكم بساتين، ويجعل لكم أنهارًا تسقون منها جنّاتكم ومزارعكم؛ لأنّهم كانوا فيما ذُكر قوم يحبون الأموال والأولاد (Al-Tabaree, 2000, p.633).

4- خلق الله تعالى الإنسان أطوارًا:

لقد خلق الله تعالى الإنسان في أطوار متباينة، فخلقهم أولاً ترابًا، ثمّ خلقهم نطفًا، ثمّ خلقهم علقًا، ثمّ خلقهم مضغًا ثمّ خلقهم عظامًا ولحمًا، ثمّ أنشأهم خلقاً آخر كما نقل الرّازيّ في تفسيره عن ابن الأنباريّ أنّ الطّور يعني الحال، أي أنّ الله تعالى خلقهم أصنافًا مختلفين لا يشبه بعضهم بعضًا (Al-Razee, 2000, pp.123-124).

لذلك وجّه نوح عليه السّلام نظر قومه إلى أنّ الله تعالى جعل في أنفسهم دليلاً على التّوحيد يدلّ على "صنع الله تعالى بخلقهم أطوارًا مختلفة، وعنايته بهم في أدوار حياتهم الجينيّة، وحياتهم الدّنيا" (Al-Najjar, W.D, p.48).

5- خلق الله تعالى السّموات طباقًا:

دعا نوح عليه السّلام قومه أن يتفكّروا في خلق السّموات، حيث خلقها الله تعالى طبقات بعضها فوق بعض (Al-Tabaree, 2000, p.636)، وأنّ "بعضها أعلى من بعض، وذلك يقتضي أنّها منفصل بعضها عن بعض وأنّ بعضها أعلى من سواء كانت متماسة، أو كان بينها ما يسمّى بالخلاء" (Ibn Ashour, 2000, p.188).

6- جعل الله تعالى القمر نورًا والشّمس سراجًا:

أرشد نوح عليه السّلام الملأ من قومه إلى تأمّل العالم العلويّ، وما أودع الله تعالى فيه من هذين النّيرين القمر والشّمس اللذين بهما قوام الوجود (Abu Hayyan, 2001, p334)، فالقمر يضيء نوره عتمة الليل، والشّمس ينشر ضياءه في الوجود.

يؤكّد ابن كثير ذلك بقوله: "فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلاً منهما أنموذجًا على حدة؛ ليعرف الليل والنّهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدّر القمر منازل وبروجًا، وفاوت نوره، فتارة والنّهار يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مضي الشّـــهور والأعـــوام" (Ibn Katheer, 1994, p.213).

7- الله تعالى هو المحيي والمميت:

طلب نوح عليه السّلام منهم أن يتدبّروا في بداية خلقهم ونهايتها، فذكر الإنبات استعارة في الإنشاء، حيث أنشأ الله تعالى آدم عليه السّلام من الأرض، وصـــارت ذريّته منه، فصحّ نسبتهم كلّهم إلى أنّهم أُنبتوا منها، ثمّ يصيّرهم فيها مقبورين، ثمّ يُخرجهم يوم القيامة (Ibn Hayyan, 2001, p.334).

ويمكن الاستدلال بهذا المشهد على كمال قدرة الله تعالى، فقد أنبتكم فنبتم نباتًا عجيبًا كاملاً، وهذا وصف للنّبات بكونه عجيبًا كاملاً، وكون النّبات كذلك أمر مشاهد محسوس، فكان هذا موافقًا لهذا المقام، فظهر أنّ العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف، ثمّ بعد ذلك يميتكم، فيعيدكم فِيهَا؛ ليشير إلى الطريقة المعهودة في القرآن من أنّه تعالى لمّا كان قادرًا على الابتداء كان قادرًا على الإعادة، ثمّ أكّد إخراجهم منها بالمصدر، لبيان أنّ بعثهم حقاً لا محالـــة (Al-Razee, 2000, p.125).

8- بسط الله تعالى الأرض:

خاطب نوح عليه السّلام قومه أن يتأمّلوا في الأرض التي خلقها الله تعالى لهم، وبسطها، ومهّدها، وقرّرها، وثبّتها بالجبال الراسيات؛ ليسلكوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا، فيستقرّوا عليها، ويسلكوا في طرقها الواسعة الممهّدة أين أرادوا من نواحيها وأرجائها وأقطارها (Ibn Katheer, 1994, p.213).

ثانيًا: توحيد الألوهيّة:

إنّ توحيد الألوهيّة الذي يعني عبادة الله وحده لا شريك له، هو أول دعوة الرّسل عليهم السّلام، ونزلت به الكتب، وأول مقام يقوم فيه السّالك إلى الله تعالى، قال هود عليه السّلام لقومه: "أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ" سورة (AlMu'minun, 32) ، وقال صالح عليه السّلام لقومه: "يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" [سورة هود، الآية61]، وقال شعيب عليه السلام لقومه: "يَا

قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" سورة (Hud, 84)، وقال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" سورة (Al'Anbiya, 25)، وقال صلّى الله عليه وسلّم: "أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ (Al-Bukharee, 1422 A.H, p.29) (Ibn Abee al-Izz, 1391 A.H, p.77) .

ونلحظ من خلال حوار نوح عليه السّلام مع قومه أنّه ابتدأ دعوته إيّاهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ثمّ بعد ذلك لفت عقولهم إلى التدبّر والتأمّل في الآيات الكونيّة الدّالة على وجود الله تعالى؛ لتدفعهم إلى تحقيق توحيد الألوهيّة المتمثّل في إفراد الله تعالى بالعبادة والطّاعة والخضوع والامتثال.

فقد أمر نوح عليه السّلام قومه بثلاثة أشياء بعبادة الله، وتقواه، وطاعة نفسه، فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات، والمندوبات، والأمر بتقواه يتناول الزّجر عن جميع المحظورات والمكروهات، وقوله: (وَأَطِيعُونِ) يتناول أمرهم بطاعته وجميع المأمورات والمنهيات، وخصّ الطّاعة بالذكر تأكيداً في ذلك التكليف، ومبالغة في تقريره، ثمّ إنّه تعالى وعدهم عليها بشيئين: أحدهما أن يزيل مضار الآخرة عنهم، وهو قوله: (يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ)، والثاني: يزيل عنهم مضار الدّنيا بقدر الإمكان، وذلك بأن يؤخّر أجلهم إلى أقصى الإمكان (Al-Razee, 2000, pp.119-120).

ومن الجدير بالذكر أنّ توحيد الألوهيّة يتضمّن توحيد الربوبيّة، فإنّ المشركين من العرب كانوا يقرّون بتوحيد الربوبيّة، وأنّ خالق السّماوات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله تعالى: "وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" سورة (Luqman, 25) ، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنّها مشاركة لله في خلق العالم، بل كانوا يعتقدون أنّ هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصّالحين، ويتخذونهم شفعاء، ويتوسّلون بهم إلى الله تعالى، وهذا كان أصل شرك العرب. قال الله تعالى حكاية عن قوم نوح: "وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً" سورة (Nuh, 23) (Al-Razee, 2000, p.77) .

وركّز نوح عليه السّلام على توحيد الألوهيّة عندما دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإفراده تعالى بالألوهيّة، "فقال لمَن كفر منهم: يا قوم، اعبدوا الله الذي له العبادة، وذِلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنّه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العبادةَ غيرُه" (Al-Tabaree, 2000, p.499).

وقد ذكر الله تعالى ذلك في أكثر من سورة كريمة، فقال:" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ " سورة (AlA'raf, 59)، وقال تعالى على لسان نوح عليه السّلام لقومه: "أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ" سورة (Hud, 26)، وقال تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ" سورة (AlMu'minun, 23) كما ورد في سورة نوح أنّه قــال لقومه: "أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ" سورة (Nuh, 3).

وتُبرز هذه الآيات الكريمة أنّ نوحًا عليه السّلام أمر قومه إلى عبادة الله وحده، "فإن كانوا مشركين كان أمرُه إيّاهم بعبادة الله مقيّدًا بمدلول قوله: "مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ"، أي أفْرِدوه بالعبادة، ولا تُشركوا معه الأصنام، وإن كانوا مقتصرين على عبادة الأوثان كان قوله: "مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" تعليلاً للإقبال على عبادة الله، أي هو الإله لا أوثانُكم، وجملة: "مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" على الوجه الأوّل بيان للعبادة التي أمَرَهم بها، أي أفْرِدوه بالعبادة دون غيره، إذ ليس غيره لكم بالإله، وعلى الوجه الثّاني يكون استئنافًا بيانيًّا للأمر بالإقلاع عن عبادة غيره" (Ibn Ashour, 2000, p.415).

كما دلّت هذه الآيات الكريمة على أنّ الله تعالى هو الإله الذي يستحق العبادة؛ لأنّ في قوله: "اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" إثباتًا ونفيًا، وحتى يتطابق كلّ من النّفي والإثبات كان المعنى اعبدوا الله ما لكم من معبود غيره، ثمّ ثبت بالدليل أنّ الإله ليس هو المعبود، وإلا لوجب كون الأصنام آلهة، وأن لا يكون الإله إلهًا في الأزل؛ لأجل أنّه في الأزل غير معبود، فوجب حمل لفظ الإله على أنّه المستحق للعبادة (Al-Razee, 2000, p122).

ولم يكتفِ نوح عليه السّلام بذلك في بيان حقيقة توحيد الألوهيّة ولوازمه لقومه، بل إنّه أنذرهم ممّا توعدّه الله تعالى من عذاب مهين مبين أليم عظيم لكلّ مَن لم يحقّق هذا التّوحيد، ويخالف مقتضياته ولوازمه، فقد خوّفهم من عذاب يوم القيامة إذا لقوا الله تعالى وهم مشركون به، ولم يتوجّهوا

إلى الله تعالى بالعبادة والخضوع، واستمروا على ما هم عليه عذّبهم الله عذابًا أليمًا موجعًا شاقًا في الآخرة (Ibn Katheer, 1994, pp. 272, 538).

يقول تعالى في هذا النّطاق: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" سورة (AlA'raf, 59)، ويقول تعالى: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحــاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(25) أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَــافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ" سورة (Hud, 25-26)، ويقول تعالى حكاية عن نوح لقومه: "إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ" سورة (AshShu'ara, 115)، ويقول تعالى: "إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحــاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" ســورة (Nuh, 1).

كما بيّن الرّازيّ أنّ الله تعالى في قوله: "مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارا سورةً (Nuh, 25) أدخلهم النّار من أجـل خطاياهم وبســببها (Al-Razee, 2000, p.128)، أي أنّه سوف يُدخل النّار مَن رفض الإيمان بنوح عليه السّلام، ودعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام.

قال أبو حيّان الأندلسيّ في قوله تعالى: (فَأُدْخِلُواْ نَاراً): "أي جهنّم، وعبّر عن المستقبل بالماضي لتحقّقه، وعطف بالفاء على إرادة الحكم، أو عبّر بالدخول عن عرضهم على النّار غدوًّا وعشيًّا، كما قال: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا)، قال الزمخشريّ: أو أريد عذاب القبر، وقال الضحّاك: كانوا يغرقون من جانب، ويحرقون بالنار من جانب" (Abu Hayyan, 2001, p.337).

المبحث الثالث: المسائل المتعلّقة بالنّبوّات:

المطلب الأول: تعريف النّبيّ والرّسول لغة واصطلاحًا:

أولاً: تعريف النّبي الرّسول في اللغة:

أشار ابن فارس إلى أنّ كلمة النّبيّ وردت بالهمز وبغير الهمز، وهي مشتقّة من النّبأ، وهو الخبر، فقال: "(نبأ) النّون والباء والهمزة قياسه الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان، يقال للذي يَنْبأ من أرض إلى أرضٍ: نابئ، وسيلٌ نابئ: أتَى من بلدٍ إلى بلد ورجل نابئ مثله... ومن هذا القياس النَّبَأ: الخبر؛ لأنَّه يأتي من مكانٍ إلى مكان، والمُنبئ: المُخْبِر...، ومن هَمَز النّبيَّ؛ فلأنه أنبأ عن الله تعالى" (Ibn Fares, 1979, p.385).

وكذلك، فقد ذكر ابن فارس أنّ كلمة النّبيّ قد تكون مشتقة من النَّبْوة أيضًا، وتعني الارتفاع، فقال: "(نبو) النّون والباء والحرف المعتلّ أصلٌ صحيح يدلُّ على ارتفاعٍ في الشيء عن غَيره...، ويقال: إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم اسمُه من النَّبْوة، وهو الارتفاع، كأنَّه مفضّل على سائر الناس برَفْع منزلته" (Ibn Fares, 1979, pp.385-386).

ثمّ أورد معنى آخر للنَّبي، وهو الطّريق (Ibn Fares, 1979, p.386). وأشار السّفارينيّ إلى هذا المعنى للنّبيّ بأنّه مأخوذ من النّبيّ أي الطّريق؛ لأنّه الطّريق الموصِل إلى الله تعالى (Al-Safareeneyy, 1982, p.49).

وأمّا تعريف الرّسول في اللغة، فهو مأخوذ من "(رسل): الرّاء والسّين واللام أصلٌ واحدٌ مطّردٌ مُنْقاس، يدلُّ على الانبعاث والامتداد، فالرَّسْل: السَّير السَّهل" (Ibn Fares, 1979, p.392).

وجاء في لسان العرب أنّ الرَّسْل هو القطيع من كلّ شيء، والرِّسْل: الرّفق والتّؤدة، واللّبن، يقال: كثُر الرِّسْل: أي كثُر اللّبن (Ibn Mandhour, W.D, p.281).

ثانيًا: تعريف النّبي الرّسول في الاصطلاح:

عُرّف النّبيّ في الاصطلاح بأنّه "المبعوث بتقرير شرع مَن قبله" (Omar al-Ashqar, 1983, p.15)، في حين أنّ تعريف الرّسول اصطلاحًا هو" مَن أُوحي إليه بشرع" (Omar al-Ashqar, 1983, p.15).

وقد أشار ابن أبي العزّ الحنفيّ إلى أنّ العلماء" ذكروا فروقًا بين النّبي والرّسول..، فالرّسول أخصّ من النّبيّ، فكلّ رسول نبيّ، وليس كلّ نبي رسولاً، ولكنّ الرّسالة أعمّ من جهة نفسها، فالنّبوة جزء من الرسالة، إذ الرّسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرّسل، فإنّهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس، فالرسالة أعمّ من جهة نفسها، وأخصّ من جهة أهلها" (Ibn Abee al-Izz, 1391 A.H, p.149).

وانطلاقًا من هذا القول، فإنّ الرّسول أفضل من النّبيّ; لتميّزه بالرّسالة التي هي أفضل من النّبوة على الأصح، ووجه تفضيل الرّسالة؛ لأنّها تثمر هداية الأمّة، والنّبوة قاصرة على النّبيّ، ثمّ إنّ محل الخلاف فيهما مع اتحاد محلهما وقيامهما معًا بشخص واحد، أمّا مع تعدد المحل، فلا خلاف في أفضليّة الرّسالة على النّبوة (Al-Safareeneyy, 1982, pp.49-50).

المطلب الثاني: نبوّة نوح عليه السّلام:

يتفضّل الله تعالى على مَن يشاء من خلقه بالنّبوّة، فهي اصطفاء واجتباء وهبة" لا تُنال بمجرد الكسب بالجدّ والاجتهاد، وتكلّف أنواع العبادات، واقتحام أشقّ الطّاعات، وتدأب في تهذيب نفسه، وتنقية خواطره، وتطهير أخلاقه، ورياضة نفسه وبدنه، وتهذيب ذلك، لكنّها أي: النّبوة والرّسالة فضل من المولى الأجلّ سبحانه وتعالى يؤتيه مَن شاء ممّن سبق علمه وإرادته الأزليان باصطفائه لها" (Al-Safareeneyy, 1982, p.268).

ويؤيّد ذلك قوله تعالى: "وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ" سورة (Al'Imran, 179)، وقوله تعالى: "اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" سورة (AlAn'am, 124)، وقوله تعالى: "اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" سورة (AlHajj, 75).

وقد اصطفى الله تعالى نوحًا عليه السّلام، وأرسله إلى قومه، ليردّهم إلى جادّة الصّواب، ويعيدهم إلى عبادة الله الواحد، فأرسله تعالى إلى أهل الأرض، لمّا عبد النّاس الأوثان، وانتقم له لمّا طالت مدته في قومه، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهارًا، سرا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا فرارًا، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه (Ibn Katheer, 1994, pp.440-441).

وأكّد الله تعالى نبوّة نوح عليه السّلام، واصطفاءه له في القرآن الكريم من خلال الآيات الكريمة الآتية:

أولاً: قوله تعالى: "إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ" سورة (Al'Imran, 33).

قال الرّازيّ: "اصطفاهم؛ أي جعلهم صفوة خلقه تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يُصفّى ويُنقى من الكدورة...، فنقول: في الآية قولان؛ الأول: المعنى أنّ الله اصطفّى دين آدم ودين نوح، فيكون الاصطفاء راجعًا إلى دينهم وشرعهم وملتهم، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف المضاف، والثاني: أن يكون المعنى إنّ الله اصطفاهم؛ أي صفّاهم من الصّفات الذميمة، وزيّنهم بالخصال الحميدة، وهذا القول أولى لوجهين؛ أحدهما: أنّا لا نحتاج فيه إلى الإضمار، والثاني: أنّه موافق لقوله تعالى: "اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" سورة (AlAn'am, 124) .

ثانيًا: قوله تعالى: "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً" سورة (AnNisa, 163).

أشار أبو حيّان الأندلسيّ إلى أنّ الله تعالى عندما ذكر في هذه الآية اصطفاء نوح عليه السّلام قدّمه على سائر الأنبياء عليهم السّلام، وجرّده منهم في الذكر؛ "لأنّه الأب الثاني، وأول الرّسل، ودعوته عامّة لجميع مَن كان إذ ذاك في الأرض، كما أنّ دعوة محمّد صلّى الله عليه وسلّم عامّة لجميع مّن في الأرض" (Abu Hayyan, 2001, p.413).

ثالثًا: قوله تعالى: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{59} قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{60} قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{61} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" سورة (AlA'raf, 59-62) .

وصف نوح عليه السّلام نفسه بأشرف الصّفات وأجلّها، وهو أنّه رسول إلى الخلق من ربّ العالمين، ثمّ ذكر المقصود من الرّسالة، وهو أمران؛ الأول: تبليغ الرّسالة، والثاني تقرير النّصيحة، وأنّ تبليغ الرّسالة معناه: أن يعرّفهم أنواع تكاليف الله، وأقسام أوامره ونواهيه، وأمّا النّصيحة، فهو أنّه يرغّبهم في الطّاعة ويحذّرهم من المعصية بالترغيب والترهيب، كما أنّه يعلم أنّهم إن عصوا أمـــر الله تعالى يعاقبهم بالطوفان في الدّنيا، بالعقاب الشّـــديد في الآخـــرة (Al-Razee, 2000, pp.122-123).

رابعًا: قال تعالى: "إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ{106} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ" سورة (AshShu'ara, 106-107).

وقد استدل نوح عليه السّلام على نبوّته بأمانته بين قومه، فقد استنكر عليهم استمرارهم على الشرك، وقد نهاهم عنه، وأنّه رسول لهم أمين عنهم، حيث كان عليه السّلام متصفًا بالأمانة لا يُتهم في قومه، وتأكيده ذلك؛ لأنّه توقّع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة، فإنّ الأمانة دليل على صدقه فيما بلّغهم من رسالة الله (Ibn Ashour, 2000, p. 167).

المطلب الثّالث: ردّ اعتراض قوم نوح على نبوّته عليه السّلام:

قد بيّن القرآن الكريم ثلاثة أنواع من الشّبهات التي أنكر فيها قوم نوح نبوّته عليه السّلام، واعترضوا من أجلها عليها، فرفضوا الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، وأصرّوا على شركهم به، فأورد الله تعالى اعتراضهم في قوله سبحانه: "فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ" سورة (Hud, 27).

واستنادًا إلى هذه الآية الكريمة، فيمكننا القول بأنّ اعتراضهم يكمن في ما يأتي:

الاعتراض الأوّل: إنّه بشر مثلهم، ولو كان رسولاً لما كان بشرًا، وبما أنّه بشر، فهو إذن ليس برسول؛ لأنّ البشريّة تتنافى مع الرّسالة (Al-Ameereyy, 2000, pp.81-82).

ولمّا كان بشرًا مثلهم، "فإنّ التّفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين" (Al-Razee, 2000, p.169).

الاعتراض الثاني: إنّ أتباعه هم الفقراء والضّعفاء الذين يستجيبون للأمور دون تثبّت وتدبّر، وهذا سبب لتكذيبهم إيّاه عليه السّلام، ودليل على بطلان رسالته، ولو كان صادقًا في رسالته لاتّبعه السّادّة والكبراء (Al-Ameereyy, 2000, p.81).

وهكذا، فإنّهم اتّهموا نوحًا عليه السّلام بأنّ أتباعه هم أراذلهم كالباعة، والحاكة، وأشباههم، ولم يتبعه أشرافهم ولا رؤساؤهم، ثمّ هؤلاء الذين اتبعوه لم يكن عن ترو منهم، ولا فكر، ولا نظر، بل بمجرد ما دعاهم أجابوه فاتبعوه (Ibn Katheer, 1994, p.538).

الاعتراض الثّالث: كانوا لا يرون لنوح عليه السّلام وأتباعه عليهم أيّ فضل أو ميزة دنيويّة من مال وجاه وغيرهما (Al-Ameereyy, 2000, p.83).

وقد ردّ نوح عليه السّلام على اعتراضهم، وفنّد شبهاتهم، وأجاب عنها وفق الآتي:

الردّ الأوّل: ردّ على شبهة أنّه بشر مثلهم بقوله: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ" سورة (Hud, 28)، فبيّن لهم أنّ الاصطفاء بالرّسالة أمر من عند الله تعالى، ولا يمتنع أن يصطفي الله تعالى من يشاء لرسالته بشرًا

ممّن خلق، فلا تحجرون رحمة الله تعالى، كما أنّه لا يوجد عندهم دليل صحيح على هذه الدّعوى (Al-Ameereyy, 2000, p.82).

لقد ذكر نوح عليه السّلام "أنّ المساواة في البشرية لا تمنع من حصول المفارقة في صفة النبوّة والرسالة، ثمّ ذكر الطريق الدّال على إمكانه على جهة التعليق والإمكان، وهو متيّقن أنّه على بيّنة من معرفة الله وتوحيده، وما يجب له وما يمتنع، ولكنّه أبرزه على سبيل العرض لهم، والاستدراج للإقرار بالحقّ، وقيام الحجّة على الخصم" (Abu Hayyan, 2001, p.216).

وإنّ إرسال الرّسل من البشر فيه حكم عديدة، من أبرزها: حتى يكون الرّسول القدوة الحسنة للنّاس، والمثال الذي يُحتذى به، وكذلك لمّا كان الرّسول من البشر، فإنّه يحسّ بإحساسهم، ويستشعر معاناتهم، كما يُعدّ إرسال الرّسل من البشر تكريمًا للجنس البشريّ، وما اعتراض المشركين على إرسال الرّسل من البشر إلا نتيجة نظرة دونيّة إلى الإنسان، وتجاهل للقدرات التي وهبها الله تعالى له للاتّصال بالملأ الأعلى (Ahmad Haqqeyy, 2012, pp.147-148).

الردّ الثاني: ردّ على اتّهامهم إيّاه أنّ أتباعه هم الضّعفاء والفقراء بادي الرأي الذين لا يتثّبتون في الأمور بقوله: "وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُمُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ{29} وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ" سورة (Hud, 29-30)، حيث أشار إلى أنّه مبلّغ رسالة ربّه للنّاس جميعًا، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، وأنّهم سواء في المسؤوليّة نحو الإيمان، والالتزام بشرائع الله تعالى، وكذلك سواء في الجزاء عند ملاقاة ربّهم، وأنّ فروق الغنى والفقر، والشّرف والضّعف لا علاقة لها في التّكليف، بالإضافة إلى أنّه ليس بطالب مال حتّى يقرّب إليه الأغنياء، ويطرد الفقراء، وأنّه لو فعل ذلك، فإنّ الله سيعاقبه، فمَن ينصره من عذاب وينجيه (Al-Ameereyy, 2000, pp.82-83).

ولمّا أظهر لهم نوح عليه السّلام أنّه يريد منهم الإيمان "انتقل إلى تقريبهم من النّظر في نزاهة ما جاءهم به، وأنّه لا يريد نفعًا دنيويًّا بأنّه لا يسألهم على ما جاء به مالاً يعطونه إيّاه، فبماذا يتهمونه حتّى يقطعون بكذبه" (Ibn Ashour, 2000, p.246).

كما أنّه لا يطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالاً حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيراً أو غنياً، وإنّما أجره على هذه الطّاعة الشّاقة على ربّ العالمين، وإذا كان الأمر كذلك، فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك (Al-Razee, 2000, p172).

الردّ الثّالث: ردّ دعواهم أنّهم لم يروا له عليه السّلام ومَن آمن معه أيّ فضل من مال، وجاه، وخيرات بقوله: "وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ" سورة (Hud, 31)، فعرّفهم أنّ الدّنيا دار ابتلاء، وهي ليست للتّفضيل بالمال والخيرات لمن حسُن عمله، وكمُل إيمانه، كما أنّ خزائن الله تعالى ليست بيده حتّى يُفيض منها على مَن اتّبعه، وآمن برسالته (Al-Ameereyy, 2000, p.83).

قال ابن عاشور: "فهم استدلوا على نفي نبُوّته بأنّهم لم يروا له فضلاً عليهم، فجاء هو في جوابهم بالقول بالموجَب أنّه لم يدّع فضلاً غير الوحي إليه ...، ولذلك نفى أن يكون قد ادّعى غير ذلك، واقتصر على بعض ما يتوهمونه من لوازم النبوءة، وهو أن يكون أغنى منهم، أو أن يعلم الأمور الغائبة، والقول بمعنى الدعوى" (Ibn' Ashour, 2000, p.248).

فخاطبهم عليه السّلام مجيبًا إيّاهم عن هذه الشّبهة بقوله:" لا أدّعي أنّي أملك مالاً، ولا لي غرض في المال، لا أخذاً ولا دفعاً، ولا أعلم الغيب حتى أصل به إلى ما أريد لنفسي، ولا أتباعي، ولا أقول: إنّي ملك حتى أتعظّم بذلك عليكم، بل طريقي الخضوع والتّواضع، ومَن كان هذا شأنه وطريقه، فإنّه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين، وإنّما شأنه طلب الدّين، وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين، فلمّا كانت طريقتي توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيبًا عليّ" (Al-Razee, 2000, p.173).

المبحث الرّابع: الإشكالات العقديّة في قصّة نوح عليه السّلام:

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرّسل عليهم السّلام قدوة للنّاس، وهداية لهم، فعصمهم عن اقتراف المعاصي، وصانهم عن الوقوع في الشّهوات.

وقد نجد في نصوص القرآن الكريم أو الأحاديث النّبويّة الشّريفة ما يوهم حول عصمة الأنبياء عليهم السّلام ومخالفتهم، ومن ذلك ما ورد في قصّة نوح عليه السّلام من إشكالات عقديّة لا بدّ من بيانها، والجواب عنها.

المطلب الأول: دعاء نوح عليه السّلام على قومه:

لقد مكث نوح عليه السّلام يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، ولم يؤمن بدعوته إلا مَن قد آمن كما أوحى الله تعالى إليه، حيث إنّهم لم يزدادوا إلا تكذيبًا له، وإعراضًا عنه، وإصرارًا على

عنادهم، طالبين منه العذاب الذي حذّرهم منه، قال تعالى: "قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" سورة (Hud, 32)، فعندئذ دعا نوح عليه السّلام ربّه جلّ وعلا أن يهلكهم، ولا يبقي منهم أحدًا، فقال تعالى على لسان نوح عليه السّلام: "وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً" سورة (Nuh, 26).

وإن قيل كيف صحّ أن يدعو نوح عليه السّلام على قومه، فيُجاب أنّ الله تعالى ذكر السبب في ذلك على لسان نوح عليه السّلام، فقال: "إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً" سورة (Nuh, 27)، أي أنّ بقاءهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم (Al-Sa'dee, 2000, p.889).

وقد علم نوح عليه السّلام ذلك نصًا واستقراء، فأمّا النّص يكمن في قوله تعالى: "وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ" سورة (Hud, 36)، وأمّا الاستقراء، فهو أنّه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فعرف طباعهم، وجرّب أخلاقهم، وكان يأخذ الرجل منهم ابنه إليه، ويقول: احذر هذا، فإنّه كذّاب، وإنّ أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير، وينشأ الصغير على ذلك (Al-Razee, 2000, p.130)، فعلم نوح عليه السّلام بذلك نتيجة أعمالهم، وبناء على ذلك لا جرم أنّ الله استجاب دعوته، فأغرقهم أجمعين، ونجّى نوحًا ومَن آمن معه، واستجاب لدعوته (Al-Sa'dee, 2000, p.889).

المطلب الثاني: طلب نوح عليه السّلام الشّفاعة لابنه:

أخبر الله تعالى في القرآن الكريم أنّ نوحًا عليه السّلام طلب من الله تعالى الشّفاعة لابنه الكافر، حين دعا الله تعالى له النّجاة من العذاب الذي سينزله سبحانه على الكافرين من قومه عليه السّلام وهو الغرق، فقال تعالى: "وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ" سورة (Hud, 45).

أجاب ابن كثير عن هذا الإشكال بأنّ سؤال نوح عليه السّلام ربّه في نجاة ابنه إنّما هو سؤال استعلام، وكشف منه عن حال ولده الذي غرق، "فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي"، وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين، فردّ الله تعالى عليه بأنّه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم؛ لأنّي إنّما وعدتك بنجاة مَن آمن مِن أهلك (Ibn Katheer, 1994, p.545)، فالعبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فلمّا كانت قرابة النسب هنا حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لمّا انتفت قرابة الدين نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ، وهو قوله تعالى: "قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ" سورة (Hud, 45) (Al-Razee, 2000, p.3).

لذلك قال الله تعالى: "حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ " سورة (Hud, 40)، فكان هذا الولد ممّن سبق عليه القول بالغرق، لكفره، ومخالفته أباه نبي الله نوحًا عليه السّلام (Ibn Katheer, 1994, p.545).

وبيّن الرّازيّ في مدوّنته "عصمة الأنبياء" أنّ طلب نوح عليه السّلام الشّفاعة لابنه كان مشروطًا بالإيمان، فقال: "إنّا لا نسلّم أنّه دعا لابنه مطلقًا"، بل يشترط الإيمان، لا يقال: فلم قال الله تعالى: "فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ"، وقال: "إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"، وقال نوح: "إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ" سورة (Hud, 47)؟ لأنّا نقول: يمتنع أن يكون نوح عليه السّلام نهي عن ذلك، وإن لم يقع ذلك منه، كما أنّ نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام نهي عن الشّرك، لقوله تعالى: "لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ" سورة (AzZumar, 65)، وإن لم يقع ذلك منه" (Al-Razee, W.D, pp.21-22).

كما أشار الرّازيّ في تفسيره" مفاتيح الغيب" إلى أنّ الله تعالى لمّا نزّه الأنبياء عليهم السلام من المعاصي وجب حمل سؤال نوح عليه السّلام على ترك الأفضل والأكمل، فلهذا السبب حصل العتاب، والأمر بالاستغفار، ولا يدل على ذلك ارتكاب الذنب، كما قال تعالى: "إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ" سورة (AnNasr, 1-3)، فمجيء نصر الله والفتح، ودخول النّاس في دين الله أفواجًا ليست بذنب يوجب الاستغفار، وقال تعالى: "وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ" سورة (Muhammad, 19)، وليس جميعهم مذنبين، فدلّ ذلك على أنّ الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل (Al-Razee, 2000, p.5).

ويتضح لنا ممّا تقدّم أنّ سؤال نوح عليه السّلام، وطلبه الشّفاعة لابنه لا يُعدّ معصية قادحة في عصمته عليه السّلام، أو أنّه اقترف ذنبًا يستوجب عدم العصمة.

المطلب الثالث: بقاء امرأة نوح عليه السّلام على الكفر:

ورد في القرآن الكريم أنّ امرأة نوح عليه السّلام قد كانت كافرة، فلم تؤمن بدعوته، ولم تصدق بنبوّته، قال تعالى: "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ" سورة (AtTahrim, 10).

ونقل أبو حيّان الأندلسيّ إجماع المفسرين على أنّ خيانة امرأة نوح عليه السّلام هو كفرها، وقولها: هو مجنون (Abu Hayyan, 2001, p.289)، وهذا ما أشار إليه السّعديّ في تفسيره قائلاً:" فخانتاهما في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النّسب والفراش، فإنّه ما بغت امرأة نبيّ قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيًا" (Al-Sa'dee, 2000, pp.874,785).

وقد يقال كيف جاز لنبيّ الله نوح عليه السّلام أن تكون امرأته كافرة؟

ويمكن الإجابة عن ذلك بالقول: إنّ الزواج بالكافر أو الكافرة لم يكن محرّمًا في الشّرائع السّابقة، بل كان مباحًا، يقول ابن تيمية في هذا الإطار:" فالله تعالى أباح للأنبياء أن يتزوجوا كافرة، ولم يبح تزوج البغيّ؛ لأنّ هذه تفسد مقصود النكاح بخلاف الكافرة، ولهذا أباح الله للرجل أن يلاعن مكان أربعة شهداء إذا زنت امرأته، وأسقط عنه الحدّ بلعانه، لما في ذلك من الضرر عليه" (Ibn Taymiyyah, 1386 A.H, p.176).

وأكّد ابن تيمية جواز ذلك في كتابه "الإيمان الأوسط"، فقال: "نكاح الكافرة قد يجوز في بعض الشرائع، ويجوز في شريعتنا نكاح بعض الأنواع وهنّ الكتابيات، وأمّا نكاح البغيّ فهو دِيَاثَة، وقد صان الله النّبيّ عن أن يكون دَيُّوثًا؛ ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء بتحريم نكاح البغي حتى تتوب" (Ibn Taymiyyah, 1422 A.H, p.19).

الخاتمة:

يمكن تلخيص النّتائج التي تمّ الوصول إليها من خلال هذا البحث بما يأتي:

أولاً: لئن كان آدم عليه السّلام هو أوّل نبيّ ورسول بعثه الله تعالى على وجه العموم، غير أنّ نوح عليه السّلام هو أول رسول بعثه الله تعالى إلى النّاس بعد أن عبدوا الأصنام والأوثان.

ثانيًا: تناولت قصّة نوح عليه السّلام دلائل توحيد الرّبوبيّة من خلال حواره مع قومه، وذلك عندما وجّه أنظارهم إلى مظاهر ربوبيّة الله تعالى، وقدرته، وعظمته، ونعمه عليهم في الأنفس والآفاق.

ثالثًا: ركّز نوح عليه السّلام على توحيد الألوهيّة حين دعا قومه إلى عبادة الله وحده، وإفراده تعالى بالعبادة، والخضوع والطّاعة.

رابعًا: أكّد الله تعالى في العديد من الآيات الكريمة اصطفاء نوح عليه السّلام، وأثبت من خلالها نبوّته، وردّ شبهات الطّاعنين من قومه في نبوّته، والتي تمثّلت في ثلاث شبهات هي: أنّه بشر مثلهم، وأنّ أتباعه من أراذل القوم، وأنّهم لا يرون لنوح عليه السّلام وأتباعه عليهم من فضل، ثمّ أجاب عن تلك الشّبهات وردّها.

خامسًا: أنّ الأنبياء عليهم السّلام معصومون من المعاصي، وأنّه لا يوجد ما قد يتوهم من وقوع نوح عليه السّلام في الخطأ لمّا دعا على قومه، وعندما طلب من الله تعالى الشّفاعة لابنه الكافر، وكون امرأته كافرة، وأنّ ذلك لا يقدح في عصمته عليه السّلام.

References:

Abu Hayyan. M. (2001). Al-Bahr al-Muheet. Investigation: 'Aadel Ahmad and Ali Mi'wed, edition 1. Lebanon, Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.

Al-Ameereyy. A. (2000). Fiqh Da'wat al-Anbiya' fil al-Qur'an al-Kareem. Edition 1. Dar al-Qalam, Dimuscus.

Al-Ashqar. O. (1983). Al-Rusul wal Risaalaat. Kuwait: Al-Falah Library.

Al-Bukharee. M. (1422 A.H). Saheeh al-Bukharee. Investigation: Muhammad Zuhair bin Nasser, edition 1. Dar Tawq al-Najat.

Al-Hakameyy. H. (1990). Ma'arej al-Quboul bi Sharh Sullam al-Usoul ila Ilm al-Usoul. investigation: Omar bin Mahmoud Abu Omar, edition 1. Al-Dammaam: Dar Ibn al-Qayyim.

Al-Hannamee. I. (2008). Al-Qissa fil Qur'an: Tahleel Muqaren. General Egyption Book Organization.

Al-Najjaar. A. (W.D). Qisas al-Anbiyaa'. Lebanon, Beirut: Dar al-Jabal.

Al-Razee. M. (2000). Mafateeh al-Ghayb. Edition 1. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.

Al-Saʿdee. A. (2000). Tayseer al-Kareem al-Rahman fee Tafseer al-Kalaam al-Mannan. Investigation: Abd al-Rahman al-Luwaiheq, edition 1. Al-Resala Foundation.

Al-Safaareneyy. M. (1982). Lawame' al-Anwaar al-Bahiyyah wa Sawate' al-Asraar al-Athariyyah. Edition 2. Dimuscus: Al-Khaafiqeen Libray and Foundation.

Al-Shafi'ee. M. (2006). Tafseer al-Imam al-Shafi'ee. Investigation, collection and study: Dr. Ahmad bin Mustafa al-Farran, edition 1. Saudi Arabia, Riyadh: Dar al-Tadmuriyyah.

Al-Shihristaneyy. M. (1404 A.H). Al-Milal wal Nihal. Investigation: Muhammad Sayyed Keelanee. Dar al-Ma'rifah, Beirut.

Al-Tabaree. M. (1407 A.H). Tareekh al-Umam wal Rusul wal Mulouk. Dar al- Kutub al-Ilmiyyah. Beirut.

Al-Tabaree. M. (2000). Jami' al-Bayan fee Tafseer al-Qur'an. Investigation: Ahmad Muhammad Shaker, edition 1. Al-Resala Foundation.

Haqqeyy. A. (2012). Al-Aqeedah al-Islamiyyah: al-Ilahiyyat wal Nubuwwaat. Edition 1. UAE, al-Sharjah: University of Sharjah Publications.

Ibn 'Ashour. M. (2000). Al-Tahreer wal Tanweer. Edition 1. Lebanon, Beirut: The Arabic History Foundation.

Ibn Abee al-Izz. A. (1391 A.H). Sharh al-Aqeedah al-Tahaaweyyah. Beirut: The Islamic Office.

Ibn Fares. A. (1979). Mu'jam Maqayees al-Lughah. Investigaion. Abd al-Salam Haroun. Dar al-Fikr, Dimuscus.

Ibn Hibban. M. (1993). Saheeh Ibn Hibban bi Tarteeb Ibn Bilban. Investigation: Shuaib al-Arna'out. Al-Resala Foundation, Beirut.

Ibn Katheer. I. (1994 A.H). Tafseer Al-Qur'an al-Adheem. Investigation: Mahmoud Hasan. Dar al-Fikr.

Ibn Katheer. I. (W.D). Al-Bidayah wal Nihayah. Beirut: Al-Maarif Library.

Ibn Mandhour. M. (W.D). Lisaan al-Arab. Edition 1. Beirut: Dar Sader.

Ibn Taymiyyah. A. (1386 A.H). Al-Fatawee al-Kubra. Investigation: Hasaneen Muhammad Makhlouf, edition 1. Beirut: Dar al-Ma'rifah.

Ibn Taymiyyah. A. (1422 A.H). Al-Iman al-Awsat. Investigation: Mahmoud Abu Sin, edition 1. Riyadh: Dar Taybah for Publication.

Ibn al-Atheer. A. (1998). Al-Kamel fil Tareekh. Investigation: Abee al-Fidaa' Abdullah al-Qadee. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Lebanon: Beirut.

Muslim. M. (W.D). Saheeh Muslim. Investigation: Muhammad Fu'ad Abd al-Baqee. Beirut: Dar Ihyaa' al-Turaath al-'Arabee.